مملكة قطنةْ

الأستاذ الدكتور عيد مرعي

قسم التاريخ

جامعة دمشق

مملكة قطْنة

الأستاذ الدكتور عيد مرعي

قسم التاريخ

جامعة دمشق

قطْنة Qatna مملكة أمورية قامت في منطقة حمص الحالية، وازدهرت مابين ١٨٠٠- ١٦٠٠ ق.م. كان مركزها تل المشرفة الحالي الواقع على بعد نحو ثمانية عشر كيلومتراً شمال شرقي حمص، ومائة وثمانين كيلومتراً شمال شرقي العاصمة السورية دمشق، على حافة هضبة بادية الشام الصخرية الكلسية التي تنحدر نحو حوض نهر العاصي الخصب. من المؤكد أن الصفات الطبيعية للمنطقة كالتربة الخصبة وتوافر المياه، سواء مياه نهر العاصي أو مياه الينابيع والأمطار، قدمت الشروط المناسبة للاستيطان البشري منذ أقدم العصور. يضاف إلى ذلك الموقع الجغرافي بين شمالي سورية ووسطها، وبين ساحل البحر المتوسط ونهر الفرات، الذي جعل قطنة تؤدي دوراً مهماً في حركة التجارة والاتصال ليس فقط بين المناطق السورية المختلفة، بل أيضاً بين الدول والممالك المجاورة لسورية.

بدأ التنقيب في هذا التل الفرنسي روبير دو ميسنيل دو بويسون R.du Mesnil du Boisson في الأعوام ١٩٢٤ و ١٩٢٧ - ١٩٢٩، وذلك عندما كانت سورية خاضعة للانتداب الفرنسي. فكشف عن أجزاءٍ من القصر الملكي العائد للعصر

البرونزي الوسيط (٢٠٠٠-١٥٥٠ ق.م) وعن معبد للإلهة السومرية نينغال Ningal، وعن ثلاث بوابات، وعن قبور على المنحدر الواقع بين المدينة العليا والمدينة السفلى، وعن ثمانية رُقُم مسمارية تأكدت من خلالها المطابقة بين موقع تل المشرفة الحالي ومدينة قطنة القديمة.[١]

وفي العام١٩٩٤قامت المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية بالتنقيب في الموقع، لكن لم تكتشف آثاراً مهمة. وفي العام ١٩٩٩استؤنفت الحفريات من قبل بعثة مشتركة من المديرية العامة للآثار والمتاحف السورية، ومن جامعة أوديني Udine الايطالية، ومن جامعة توبنغن Tübingen الألمانية. وقاد اكتشاف القبور الملكية والألواح المسمارية في العام ٢٠٠٢ إلى حربٍ باردة بين الفريقين الألماني والايطالي. وعثر الفريق الألماني في الثامن من آب من العام ٢٠٠٩ تحت القصر الملكي الذي يعود إلى العصر البرونزي الوسيط على مقبرة عمرها٣٥٠٠ سنة لم تطلها أيدي لصوص القبور، مليئة بكنوزٍ قديمة مثل الأسلحة وقطع الأثاث ومصاغ ذهبي وأحجار ثمينة وأواني مصنوعة من مواد مختلفة مزينة بالأرجوان، وأختام اسطوانية، ومواد ثمينة أخرى، بلغ عددها أكثر من ألفي قطعة. قاد الفريق الألماني بيتر بفيلزنر P.Pfälzner، والفريق الايطالي دانييل موراندي بوناكوسّي D.Morandi Bonacossi، والفريق السوري ميشيل مقدسي.

يشغل تل المشرفة المربع الشكل مساحة قدرها نحو مائة وعشرة هكتارات، وهو بذلك أكبر التلال الأثرية في وسط سورية من العصر البرونزي الوسيط ، علماً أن الحفريات كشفت عن طبقات أثرية يعود أقدمها إلى نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، وتضم حياً سكنياً ومدفناً ومخزناً للحبوب.

أحيطت المدينة التي نشأت هنا في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، أي في العصر الأموري بسورٍ ضخم يبلغ ارتفاع بعض الأجزاء المتبقية منه نحو عشرين متراً،

ويتراوح عمقه عند قاعدته بين ٦٠- ٨٠ م. وقد بُني من الطين والحجارة غير المشذبة. وكان يوجد أمامه خندق دفاعي. كانت المدينة مربعة الشكل تخترقها أربع بوابات (وربما خمس) تتجه نحو الجهات الأربع، ويبدو أن البوابة الغربية كانت الأهم. وتم وضع منحوتات من الحجر الكلسي والبازلت الأسود أمام البوابات التي نُحتت أساساتها من الصخر. كان عرض المدخل نحو أربعة أمتار، ويقود إلى حجرة بوابة عمقها ثمانية أمتار. ويحرس كل بوابة عدد كبير من الرجال الذين يقيمون في مكان خاص بهم عند البوابة، هو أشبه مايكون بالحصن. يذكر أحد النصوص المكتشفة (K.701) التي تعود إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كميات الجعة التي كانت توزع على نحو خمسمائة رجل مقسمين إلى مجموعات، أوكلت إليهم مهمة حراسة بوابات المدينة وبعض المباني القريبة منها.(٢)

١ - قطْنة في الألف الثالث قبل الميلاد:

تعود أقدم آثار الاستيطان البشري التي تم العثور عليها في تل المشرفة إلى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد، وتتألف كما ذكرنا من حي سكني ومدفن ومخزن للحبوب. تزايد الاستيطان البشري في الموقع بدءاً من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، ونشأت في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد مستوطنة دائرية الشكل شغلت مساحة تتراوح بين ٢٠- ٢٥هكتاراً، وتألفت، بالإضافة إلى المساحة المخصصة لتخزين المنتجات الزراعية، من حي سكني كبير بني على الجزء الشمالي من الهضبة الكلسية الذي سيُبنى عليه في مطلع الألف الثاني القصر الملكي. وكان يوجد جنوب الحي السكني سرداب عُثر فيه على مدافن لنحو أربعين شخصاً ينتمون لأسرة واحدة، يبدو أنها كانت ذات مكانة اجتماعية متميزة.

والدليل على ذلك الأشياء التي عُثر عليها في المدافن والمؤلفة من ثلاثمائة إناء فخاري، وأكثر من مائة تقدمة جنائزية برونزية، كالأسلحة مثلاً. يُضاف إلى ذلك

ممتلكات شخصية مؤلفة من مواد غريبة مصدرها مناطق بعيدة جداً مثل عقــودٍ مــن العقيق الأحمر.

وبناءً على ذلك يمكن القول إن سلطة قوية كانت توجد في قطنة في هذه الفترة تــنظم مختلف نواحي الحياة، وتتاجر مع مناطق بعيدة.[٣] من الجدير بالذكر أن مصدر العقيق الأحمر في العصور القديمة كان بعض مناطق إيران وأفغانستان. اللافت للانتبــاه أن قطْنة لايرد ذكرها في نصوص محفوظات إبلا التي تعود إلى النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد. هناك احتمال أنها كانت تحمل اسماً آخر غير معروف لنــا حتــى الآن. أما اسم قطْنة فأطلق عليها منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وهو على مايبدو مشتق من الجذر الثلاثي "قطن" المعروف في معظم لغات المشرق العربي القديم، الذي يعني:

" يكون صغيراً"، والصفة منه في اللغة الأكادية " قطْنو(م) " qatnu(m): رفيع، ضيق، صغير، وكانت تُطلق على الخيــوط والمنــسوجات وأعــضاء الجــسم والأشــخاص والشوارع والطرق.[٤]

ربما كان لاطلاق اسم "قطْنة" (الصغيرة) على المدينة التي ازدهرت فــي موقــع تــل المشرفة في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد علاقة بالمشاريع المائية التي أقيمــت فــي المنطقة والتي أدت إلى تشكل مضيق يبطئ جريان المياه، أدى بــدوره إلــى تــشكل حوض مائي أسهم في تطور المدينة بسرعة، وإلى ازدهار الزراعة وتربية الحيوان.[٥]

٢ - قطْنــة في الألف الثاني قبل الميلاد:

كانت قطْنة في القرن الثامن عشر قبل الميلاد عاصمة مملكة مزدهرة تحــدثت عنهــا محفوظات ماري الملكية في الكثير من نصوصها، وذُكرت أيضاً في بعض نــصوص ألالاخ. وعُرف من ملوكها اثنان هما إشخي أدد Ishchi-Adad وابنه أموت بيل Amut-piel الذي كان حاكماً لنزالا Nazala (القريتين حالياً) عندما كان ولياً للعهد. وقد أدت دوراً مهماً في المجال التجاري نتيجة وقوعها على طُرق المواصلات التي كانت تربط

منطقة الفرات الأوسط (مملكة ماري) مع مناطق سورية الساحلية (جُبيــل) وقبــرص وكريت، ومناطق شمالي سورية (حلب) وما بعدها مع مناطقها الجنوبية، بما في ذلك فلسطين، ومن بعدها مصر. وكانت أبرز المواد التجارية القصدير من ماري باتجــاه الغرب عبر تدمر، والنحاس من قبرص والأخشاب من لبنان ومنطقة الجبال الــساحلية باتجاه الشرق إلى ماري وبابل وآشور.

ونجد صدى لهذا الدور التجاري المهم في تأسيس مركز تجاري معروف فيها (كاروم قطْنــة).[٦]

ربما كان إشخي أدد هو الذي أسس السلالة الأمورية التي حكمت قطْنة منــذ أواخــر القرن التاسع عشر قبل الميلاد. وقد عاصر شمشي أدد الأول ملك آشــور (١٨١٥-١٧٨٢ ق.م) القوي،ودخل في تحالفٍ معه ضد سومو إبــوخ Sumu-epuch وابنــه ياريم ليم Yarim-Lim ملكي مملكة يمحاض (عاصمتها حلب). وتُوِّج ذلك التحــالف بزواج " دَمخورازي " Damchurazi،ابنة إشخي أدد من يسماخ أدد Yasmach-Adad، ابن شمشي أدد، حاكم مدينة ماري. أُعطيت دَمخورازي لقب "بيلتوم" (بعلة، سيدة) في ماري، وجلبت معها مهراً مقداره خمس عشرة تالنت من الفضة (نحو ٤٣٠ كغ).[٧]

يخاطب شمشي أدد الأول ابنه في إحدى الرسائل قائلاً:

"أريد أن آخذ لك (أزوجك) ابنة إشخي أدد. السلالة (البيت) الحاكمة في ماري لها اسم كبير، والسلالة (البيت) الحاكمة في قطْنة لها اسم كبير(أيضاً).[٨]

ولكن يبدو أن هذا الزواج، الذي يمكن أن نسميه زواجاً سياســياً، لــم يكــن ناجحــاً. وإدراكاً من شمشي أدد الأول أن الخلاف العائلي مع ملك قطْنة سيؤدي حتماً إلى سوء العلاقات والتحالفات القائمة بينهما، فإنه يخاطب يسماخ أدد في إحدى الرسائل قائلاً:

ألم يسمح الملوك السابقون لنسائهم بالعيش في القصور؟ أما أنت فترغب في أن تجعل ابنة إشخي أدد تقيم في البادية، وسيسمع والدها بالأمر، ولن يرتاح قلبه لذلك. وهذا غير مسموح به إطلاقاً وهناك حجرات كثيرة في قصر النخيل (قصر ماري). يجب أن تختار حجرة لها من بينها، وأن يُسمح لها بالسكن فيها ..... أما في البادية فلا تدعها تقيم مطلقاً".[9]

كانت دوافع ذلك التحالف قوية لدى الطرفين. فشمشي أدد الأول يريد التوسع غرباً على حساب مملكة يمحاض المسيطرة على شمالي سورية، التي قاومت خططه بشدة، وحاولت التوسع في مناطق تقع شرق نهر الفرات. كما أن قطْنة كانت تشكل قوة مهمة تسيطر على الطريق التجارية الواصلة مابين نهر الفرات في الشرق، والبحر المتوسط في الغرب، وتتحكم في مساحات واسعة من المراعي التي كانت ضرورية لقطعان حاكم ماري من الأغنام. أما إشخي أدد فكان يرجو من وراء تحالفه مع شمشي أدد تأمين سند له ضد محاولات ملوك يمحاض للتوسع جنوباً على حساب مملكته. لاشيء معروف عن نهاية إشخي أدد، لكن من المؤكد أن موقفه ضعف بعد وفاة شمشي أدد، وساءت علاقته مع ابنه وولي عهده إشمي داجان. نعرف ذلك من خلال رسالة من محفوظات ماري الملكية يحتج فيها إشخي أدد على إشمي داجان لإرساله له كمية قليلة من القصدير مقابل حصانين أبيضين أرسلهما إلى إشمي داجان[10]. فقد كانت قطْنة مشهورة بتربية هذا النوع من الخيول، والحيوانات عامةً. واشتُهرت أيضاً بصنع عرباتٍ خشبية سريعة ذات دولابين، أرسل عدداً منها ملك قطْنة اللاحق أموت بيل إلى زمري ليم ملك ماري[11]. اعتلى عرش قطْنة بعد إشخي أدد ابنه أموت بيل الذي تذكره إحدى رسائل أرشيف ماري التي أرسلها المدعو إتور أشدو إلى سيده زمري ليم ملك ماري، أنه أحد ملوك سورية وبلاد الرافدين الأقوياء في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، ويتبعه خمسة عشر ملكاً. يقول إتور أشدو:

"لايوجد ملكٌ قويٌ وحده. عشرة أو خمسة عشر ملكاً يتبعون حمورابي ملك بابل. كذلك ريم سين ملك لارسا، وكذلك إبال بيل ملك إشنونا، وأيضاً أموت بيل ملك قطْنة، وعشرون ملكاً يتبعون ياريم ليم ملك يمحاض".[١٢]

ويظهر أموت بيل في رسالة ثانية من ماري، واحداً من أربعة ملوك عظام حكموا المنطقة نفسها. وهي رسالة بعثها موظف آخر إلى زمري ليم يقول فيها:"أنه بعد وفاة شمشي أدد لم يبق سوى أربعة ملوك عظام هم: حمورابي ملك بابل، وريم سين ملك لارسا، وأموت بيل ملك قطْنة، وياريم ليم ملك يمحاض".[١٣]

يبدو أن حالة العداوة التي سادت العلاقات بين قطنة ويمحاض في عهد إشخي أدد زالت في عهد أموت بيل. فحمورابي ملك بابل رأى في إحدى الرسائل أن زمري ليم ملك ماري هو الوحيد القادر على حل النزاع القائم بين ياريم ليم الأول ملك يمحاض وأموت بيل ملك قطنة.[١٤] وهناك كسرة لوح تورد الإجابة التي أعطاها ياريم ليم الأول إلى أحد رُسُل زمري ليم:

"أموت بيل ملك قطنة يجب أن يأتي إلى حلب، وسنضع أسس علاقات ممتازة بيني وبينه بعد أن نُقسم يمين الإله ونعقد معاهدة قوية".[١٥]

يتضح من ذلك ادعاء ياريم ليم الأول بالتفوق على ملك قطنة، لكن ذلك لايعني خضوع قطنة ليمحاض.[١٦]

يبدو أن زمري ليم نجح في وساطته بين يمحاض وقطنة، وأنهى حالة العداء التي كانت قائمة بينهما، إذ لاتوجد أدلة على استمرار الصراع بين الطرفين في الفترات اللاحقة. شكلت قطنة في عهد ملكيها القويين إشخي أدد وابنه أموت بيل (القرن ١٨ قبل الميلاد) مملكة قوية سيطرت على مناطق سورية الوسطى (مناطق حمص وحماة). لكن لاتوجد معلومات عن حدودها ومدى اتساعها. كانت قادش (حالياً تل النبي مند) إحدى مدنها المهمة، ويرد في بعض النصوص التي اكتشفت في قطنة ذكر

بحيرة قطينة، بالاضافة إلى قلعة أو مدينة باسم "دور إشخي ادد" (قلعة إشخي أدد) على اسم ملكها الأول المعروف من القرن الثامن عشر قبل الميلاد. وشكّلت تدمر الموقع الشرقي المتقدم للمملكة، ويرد ذكرها في العديد من نصوص ماري، كما تشير نصوص من مناطق أخرى إلى أهميتها كمحطة على طريق القوافل والمسافرين العابرة لبادية الشام من منطقة الفرات الأوسط إلى قطنة وجُبيل وغيرها.[١٧]

كانت الرحلة من منطقة الفرات (تيرقا = تل عشارة الحالي) إلى قطْنة تستغرق عشرة أيام، كما تشير إلى ذلك إحدى رسائل شمشي أدد إلى ابنه في ماري يسماخ أدد التي يطلب منه فيها تزويد "قافلة خمر" متجهة من تيرقا إلى قطْنة بالمؤن الكافية لمدة عشرة أيام حتى تستطيع الوصول بسلام إلى هدفها.[١٨] وهذا يعني أنه كان على القافلة أن تجتاز المسافة الفاصلة بين تيرقا وقطْنة، البالغة نحو ٤٠٠ كم، بمعدل نحو ٤٠ كم في اليوم. علماً أن حيوان النقل الأساسي في هذه الفترة كان الحمار.

شكّل القصر الملكي مركز المدينة، وقد بُني في الزاوية الشمالية الغربية من المدينة العليا (الأكروبول) على مصطبة نصفها طبيعي، والآخر صناعي، وترتفع عن المنطقة المجاورة لها نحو عشرين متراً. يعدّ هذا القصر أحد أكبر الأبنية المعروفة من نوعها من العصر البرونزي الوسيط في سورية وفلسطين. شبه في تصميمه قصر ماري المشهور. وكان مقر الحكم والسكن للملك وأسرته، ومركزاً إدارياً للموظفين، وتوجد تحت أرضيته قبور الملوك السابقين، وبالتالي فهو أيضاً مركز ممارسة طقوس عبادة الأجداد .وقد شغل مساحة تزيد عن ١٦٠٠ متر مربع (١٥٠× ١١٠م). وعُثر فيه على العديد من قواعد بازلتية كانت على مايبدو لأعمدة خشبية تحمل السقف.[١٩] وتتميز قاعة الاستقبال (القاعة C) فيه بالضخامة (٣٦×٣٦ م٢)، وكان يوجد في وسطها أربعة قواعد بازلتية لأعمدة دائرية كبيرة خشبية يصل ارتفاعها إلى مابين ١٠-١٢م، كانت تحمل بالتأكيد السقف، ويتم الحصول عليها من جبال لبنان القريبة.

ونظراً لضخامتها فإنها تعدّ أكبر قاعة قصر معروفة في الشرق القديم من العصور البرونزية ٠فهي أكبر من قاعة القلعة الملكية الموجودة في العاصمة الحثية خاتوشا.

كان يوجد في زاويتها الشمالية الشرقية حجرة صغيرة (الحجرة P) المعروفة باسم معبد "سيدة القصر" Belet ekallim٠ هنا عثر الفرنسي دو ميسنيل دو بويسون على بعض الألواح المسمارية، وعلى تمثال لأبي الهول يحمل اسم الأميرة المصرية "إيتا" Ita، ابنة الفرعون المصري أمنمحات الثاني (١٩١٤- ١٨٧٦/١٨٧٩ ق٠م)٠ ربما كان هذا هدية من الفرعون المصري إلى ملك قطْنة (محفوظ حالياً في متحف اللوفر بباريس)٠

بناءً على هذه المكتشفات يمكن القول أن قاعة الاستقبال كانت المركز السياسي والديني لقصر قطْنة الملكي٠ كان يوجد في الجدار الشرقي من قاعة الاستقبال باب كبير عرضه ستة أمتار يؤدي إلى قاعة العرش (القاعة B) (طولها٤٥ م وعرضها ١٤م)، التي يبدو أن جدرانها كانت مزينة برسوم ملونة. وكان يوجد في طرفها الجنوبي، كما يظهر، العرش الملكي.[٢٠]

إن قاعة العرش هذه هي أكبر بكثير من قاعة عرش مدينة ماري (٢٦× ٧،٧ م)، وإن دل هذا على شيء فإنما على الغنى ووجود سلطة ملكية قوية تحب الظهور بمظهر القوة والعظمة٠

يؤرخ بناء القصر في بدايات الألف الثاني قبل الميلاد، وتم تدميره نحو ١٣٥٠ ق٠م على أيدي الحثيين. ويبدو أنه كان مقراً للملك إشخي أدد، وتم تشييده خلال فترة زمنية واحدة كما تدل على ذلك مواد البناء المستخدمة من آجرٍ ولبنٍ وطينٍ وأخشابٍ. وكان يتألف من طابقين ويضم نحو مائة حجرة مختلفة المساحة والمواصفات. ووصل ارتفاع جدرانه المبنية من اللبن حتى٢٠، ٥ م وتوجد تحتها أساسات ارتفاعها ١٠، ٣م. وعثر المنقبون الألمان الذين كشفوا عن الجناح الغربي من القصر في موسم

الحفريات العاشر في العام ٢٠٠٨ في البئر المجاورة للجناح البالغ عمقها ١٧ م على كميات كبيرة من الأخشاب التي سقطت عند تهدم القصر في العام ١٣٥٠ ق٠م، كان من بينها دعامات سقف طولها خمسة أمتار ووزنها ٨٠٠ كغ. يظهر أن هذه الأخشاب كانت من أرز لبنان.

ومن الاكتشافات المثيرة عظام فيلة كانت موضوعة في غرفتين من غرف القصر لأهداف غير معروفة، وتعود إلى نحو ١٤٠٠ ق م. يعدّ هذا أول اكتشاف لعظام فيلة في سورية، وهو مهم لدراسة تاريخ البيئة الطبيعية في سورية٠ تجري حالياً دراسة العظام من قبل عالمة الحيوان إيمانويلي ڤيلا E.Vila من جامعة ليون الفرنسية بهدف معرفة أصل الفيلة في سورية٠

تاريخياً يمكن ربط هذا الاكتشاف مع تقارير الفراعنة المصريين تحوتموس الأول (نحو ١٥٠٠ ق٠م) وتحوتموس الثالث (نحو ١٤٥٠ ق٠م) عن صيد الفيلة في غربي سورية خلال حملاتهم على شمالي سورية٠ يخبرنا تحوتموس الثالث أنه قتل ١٢٠ فيلاً في بلاد "نيا" الغريبة، عندما عاد من نهارينا (منطقة منحنى الفرات)، وعبر النهر العظيم ذي المياه المعكوسة (نهر الفرات أو العاصي)٠ وتتكرر القصة ذاتها في سيرة الجندي المصري أمينيمحب الذاتية التي يذكر فيها أنه قتل الفيلة من أجل أنيابها "قاتل الجندي الشجاع ضد أكبرها، وقطع له يده حياً (خرطومه)٠٠٠ لما كان واقفاً في الماء"٠ ربما كان العدد المذكور مبالغاً فيه، إلا أنه يشير إلى وجود الفيلة في منطقة نيا التي يبدو أنها كانت تقع في منطقة العاصي الأوسط في المناطق القريبة من موقع مدينة أفاميا اللاحقة، حيث كانت توجد مستنقعات وادي الغاب التي جففت في خمسينيات القرن الماضي٠

إن مكتشفات قطْنة من عظام الفيلة تؤكد أن تقارير الفراعنة المصريين بأنهم اصطادوا فيلة في مناطق غربي سورية كانت تستند إلى معطيات واقعية. وربما تمت تربية هذه الحيوانات في منطقة قطْنة.

وتم العثور في العام ٢٠٠٢ في الممر المؤدي من قاعة العرش إلى المدفن الملكي على ثلاثة وسبعين لوحاً مسمارياً تعود إلى عهد الملك إدَندا Idanda (Idadda) غير المعروف سابقاً، والذي يبدو أنه حكم مابين ١٣٥٥/١٣٥٠ – ١٣٢٠ ق.م زمن تحركات الملك الحثي شوبيلوليوما الأول في سورية. يبدو أن هذه الألواح كانت موجودة أصلاً في حجرة عليا فوق الممر، كانت عبارة عن "حجرة للكتابة " أو "مستودع "، وشويت بالنيران التي شبت في المكان نتيجة هجمات الأعداء.

تحوي هذه الألواح معلومات عن الوضع السياسي في شمالي سورية، وعن التهديد الحثي، وعن أمورٍ إدارية في القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وكُتبت بخليط من اللغتين الأكادية والحورية غير معروف سابقاً. وتخبرنا العديد من الرسائل الموجهة إلى الملك عن التطورات السياسية والأوضاع العسكرية في سورية في ذلك الوقت. وتذكر تدمير مدن وسقوط مملكة حوري ميتاني في أعالي بلاد الرافدين، كما ذُكر الملك الحثي مرات متعددة في إطار الحديث عن نشاطات سياسية ودبلوماسية.

يتضح من ذلك أنه كان لدى ملوك قطْنة جهاز استخبارات يمدهم بالمعلومات عن الأحداث السياسية والتطورات التي تحدث مباشرة وبسرعة.

وكما أكدّ اللغوي الألماني توماس ريختر Th. Richter، الذي كُلّف بقراءة الألواح المكتشفة، فإن هذه الألواح هي أرشيف ملكي يتألف ليس فقط من رسائل سياسية، بل من وثائق مملكة قطْنة الإدارية، ومن وثائق حقوقية تعالج على سبيل المثال إطلاق سراح العبيد، ومن قوائم بأسماء أشياء كانت تُحفظ في القصر الملكي.[٢١] وثمة وثيقة قانونية ذات أهمية خاصة تعود إلى عهد المدعو أدد نيراري الحاكم السابق لقطْنة قبل

إداندا، وهي تبين بوضوح أن منطقة حكم هذا الملك امتدت بعيداً باتجاه الجنوب الغربي وشملت جزءاً من جبل لبنان، تقول الوثيقة: "أسكن أدد نيراري، الملك، هؤلاء الرجال في توكاد Tukad، كونهم رماة سهام على العربات الحربية.... في بلد آخر لايؤدون خدمة "الخورادو" Huradu (الحراسة)، (ولكن) عندما يأتي الملك إلى جبل لبنان يؤدون (هذه) الخدمة".[٢٢]

ومما تجدر الإشارة إليه أن قائمة موجودات Inventar معبد الإلهة نينغال التي عُثر على عدة نسخ منها تعدّ أهم نصٍ عثر عليه الفرنسي دو بويسون خلال حفرياته الأولى، وهي عبارة عن قائمة مؤلفة من عدة مئات من الأسطر تذكر أسماء أدواتٍ لها علاقة بالطقوس الدينية، وتكمن أهميتها في أنها تذكر أسماء المتبرعين بهذه الأدوات من حكام قطْنة، الأمر الذي يمكّن من معرفة تواريخ حكمهم بشكل متسلسل. وقد اكتُشفت نسخة جديدة منها في حفريات العام ٢٠٠٣[٢٣]

وهناك قصر ملكي آخر عُثر عليه في المدينة السفلى كان مبنياً على طرف الأكروبول، كُشف منه حتى الآن ٦٥ غرفة، استُخدم خلال الفترة مابين القرن السادس عشر والرابع عشر قبل الميلاد، وكان فيه ثلاث باحات كبيرة على الأقل، وظيفتها ربط أجزاء القصر المختلفة بعضها مع بعض.[٢٤]

واللافت للانتباه العثور في هذا القصر على حمامات ومنشآت صحية مما يدل على تقدم حضاري كبير عرفته سورية في ذلك الزمن.

وثمة قصرٌ ثالث هو القصر الشرقي الذي بُني في أعلى نقطة من الأكروبول، ويعود إلى العصر البرونزي الوسيط الثاني (١٨٠٠- ١٥٥٠ ق.م). وقد بُنيت جدرانه الضخمة من اللبن، وبعضها بالطين المدكوك، ويصل عرضها حتى ٥، ٣ م ، وطولها حتى ١٨م. وبقيت سليمة حتى ارتفاع مترين، وبُنيت على أساساتٍ حجرية.[٢٥]

لانعرف إلا القليل عن قطنْة بعد توقف محفوظات ماري الملكية عن الحديث عنها بعد تدمير حمورابي لماري في العام ١٧٥٩ ق٠م. فأحد نصوص ألالاخ من الطبقة السابعة مؤرخ بالسنة التي حدث فيها صدامٌ مسلح بين يمحاض وقطنْة في عهد ملك يمحاض ياريم ليم الثالث، وقد انتهى بهزيمة قطنْة.[٢٦] ويتحدث نصٌ آخر عن وجود عمال زراعيين من قطنْة في ألالاخ[٢٧] خضعت قطنْة للإمبراطورية الحورية الميتانية في القرن الخامس عشر قبل الميلاد. لكن كونها موجودة في منطقة تنازعت عليها الإمبراطورية المذكورة مع الإمبراطورية المصرية الحديثة فإنها خضعت للمصريين أحياناً، ونجد لها ذكراً في بعض النقوش المصرية كمنطقة وصلتها جيوش الفراعنة. فهذا تحوتموس الأول (١٥٠٦- ١٤٩٤ق٠م) يذكرها في كتاباته. ويذكر تحوتموس الثالث (١٤٦٨- ١٤٣٦ق٠م) أنه أقام في أرض قطنْة في السنة الثالثة والثلاثين من حكمه. ويقول أمنحوتب الثاني (١٤٣٨- ١٤١٢ ق٠م) ابن تحوتموس الثالث وخليفته أنه "عند عبوره مياه نهر العاصي الهادرة، لاحظ جماعة أتوا من ناحية قطنة خلسة يحاولون الانقضاض عليه، فقصدهم وحيداً، وانقضّ عليهم انقضاض الباشق. فانطلقوا مذعورين ووقع كل منهم فوق رفيقه ومعهم قائدهم، ولكنه لاحقهم ولحقهم وهو وحيد، وفتك بهم أجمعين".[٢٨]ويرد آخر ذكر لقطنْة في نصوصٍ مصرية من عهد رعمسيس الثالث (نحو ١١٨٠ ق٠م).

٣ - قطنْة في عصر العمارنة:

أصبحت قطنة في عصر العمارنة مملكة صغيرة تابعة لمصر عُرف من ملوكها المدعو أكيزي Akizzi الذي أرسل عدة رسائل (ضمن رسائل تل العمارنة EA 52-57) إلى الفرعون المصري أمنحوتب الرابع (أخناتون) يعبر فيها عن ولائه له، ويرجو أن يرسل إليه عساكر وعربات لمساعدته في الاستيلاء على منطقة نوخاشي القريبة، وإلقاء القبض على عزيرو حاكم أمورو الذي قام بتوسيع منطقة نفوذه في وسط سورية على حساب النفوذ المصري هناك٠ يقول في إحداها(EA 55):

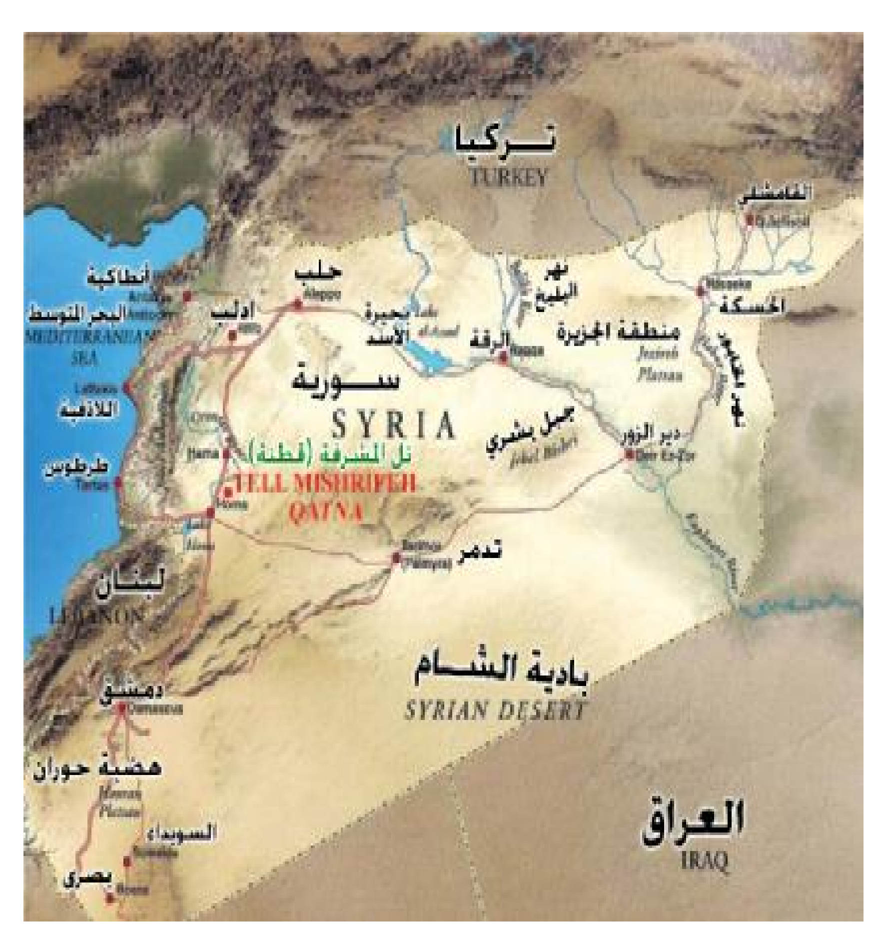
"قلْ لنمخوريا (أمنحوتب الرابع)، ابن الشمس، سيدي: رسالة أكيزي، عبدك، أجثو عند قدمي سيدي سبعاً وسبعاً. سيدي أنا عبدك في هذا المكان. أبحث عن سبيلٍ إلى سيدي، أنا لن أهجر سيدي. منذ زمنٍ (بعيد) كان أسلافي عبيدك، وكانت هذه البلاد بلادك، وكانت قطنة مدينتك، وأنا أتبع سيدي.
سيدي، عندما تصل عساكر وعربات سيدي إلى هنا، فسيُقدم الطعام والشراب الجيد والثيران والأغنام والماعز والعسل والزيت إلى عساكر وعربات سيدي. انظر هناك وجهاء سيدي، على سيدي أن يسألهم. سيدي، إن كل البلدان في خوف من عساكرك وعرباتك. إذا ما كان سيدي سيحتل هذه البلدان ويضمها إلى بلاده ، فليت سيدي يرسل عساكره وعرباته في هذه السنة، وليته يأتي إلى هنا كي تصبح كل بلاد نوخاشي لسيدي. سيدي! إذا خرج العساكر، وأقاموا ستة أيام (في أمورو)، فهم بالتأكيد سيأخذون عزيرو. وإذا لم تخرج عساكر وعربات سيدي في هذه السنة، ولم يقاتلوا عزيرو، فإن البلاد ستخاف منه... أرجو أن يعرف سيدي ذلك ..... لكن الآن ملك خاتي (بلاد الحثيين) أضرم فيها النيران. أخذ ملك خاتي آلهته ورجال قطْنة المقاتلين. سيدي، عزيرو أخذ رجال من قطنة، خدمي، وأبعدهم عن بلاد سيدي وهم يقيمون حالياً بعيدين عن بلاد سيدي. إذا كان ذلك يسر سيدي أرجوه أن يرسل لي المال كفدية لإطلاق سراح رجال قطنة".[٢٩] ويؤكد في رسالة ثانية إخلاصه للفرعون المصري قائلاً: (EA 56, 9-13)
"أنا خادمك، وأنت سيدي، عليك ألا تدعني أخرج من يدك. أنا، من جهتي لن أخرج عن (طاعة) سيدي. فأنا وضعت ثقتي في سيدي، وفي قواته وعرباته".[٣٠]
لكن على الرغم من هذا الولاء والتبعية لمصر فإن أخناتون لم يحرك ساكناً لمساعدة أتباعه في سورية، إذ كان منشغلاً بإصلاحه الديني الداعي إلى عبادة إله واحد هو آتون Atun إله الشمس. وهذا ماشجع الملك الحثي المشهور شوبيلوليوما الأول (١٣٥٥/١٣٥٠-١٣٢٠ق.م) على مهاجمة قطنة في إحدى حملاته المتعددة على

سورية، ونهبها، وإحراقها، وتهجير من بقي من سكانها على قيد الحياة إلى بلاد خاتي (آسيا الصغرى). وقد أدت الحفريات الحديثة التي جرت في موقع قطنة (تل المشرفة) إلى الكشف عن آثار دمار وحريق كبير يمكن أن يُنسب إلى شوبيلوليوما[٣١].

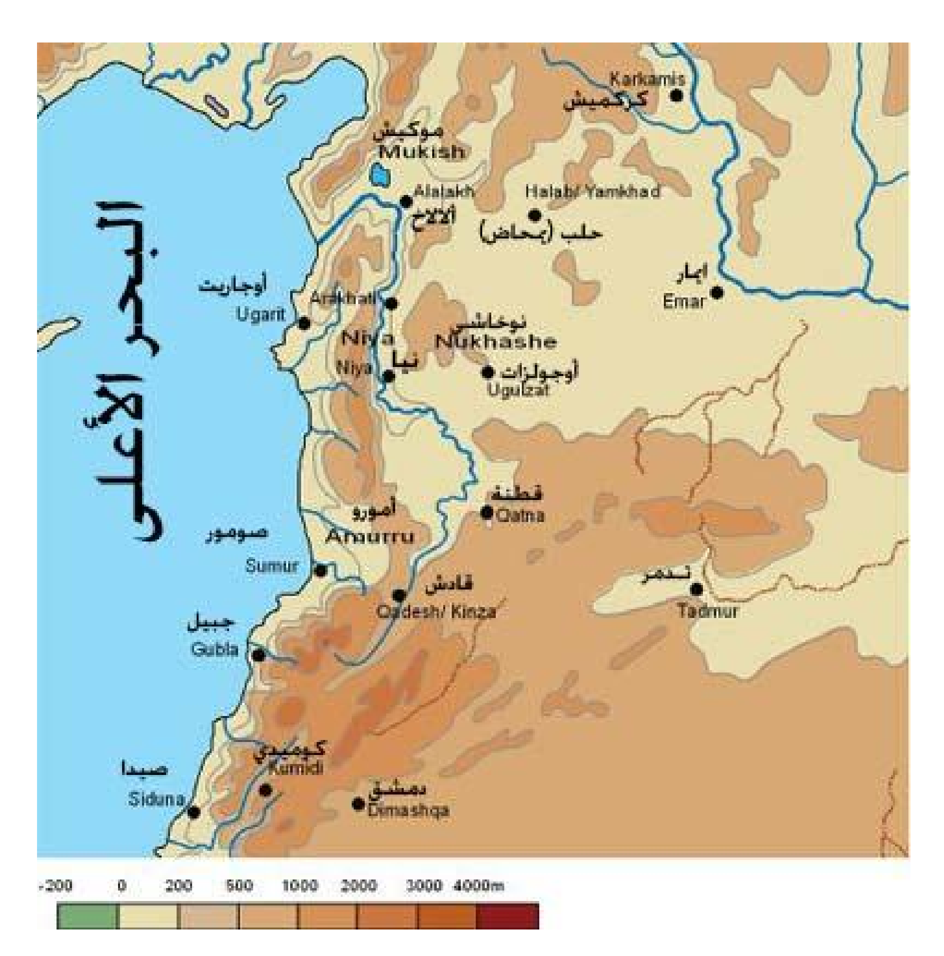
أعيد استيطان قطنة فيما بعد من قبل بعض القبائل الآرامية في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ثم في العصر البابلي الحديث (القرنين السابع والسادس قبل الميلاد)، لكنها فقدت أهميتها بسبب ظهور مراكز ممالك جديدة في المنطقة (مملكة حماة الآرامية على سبيل المثال) .



صورة جوية لموقع تل المشرفة (قطْنـة)



قطنْــــة في وسط سوريــة



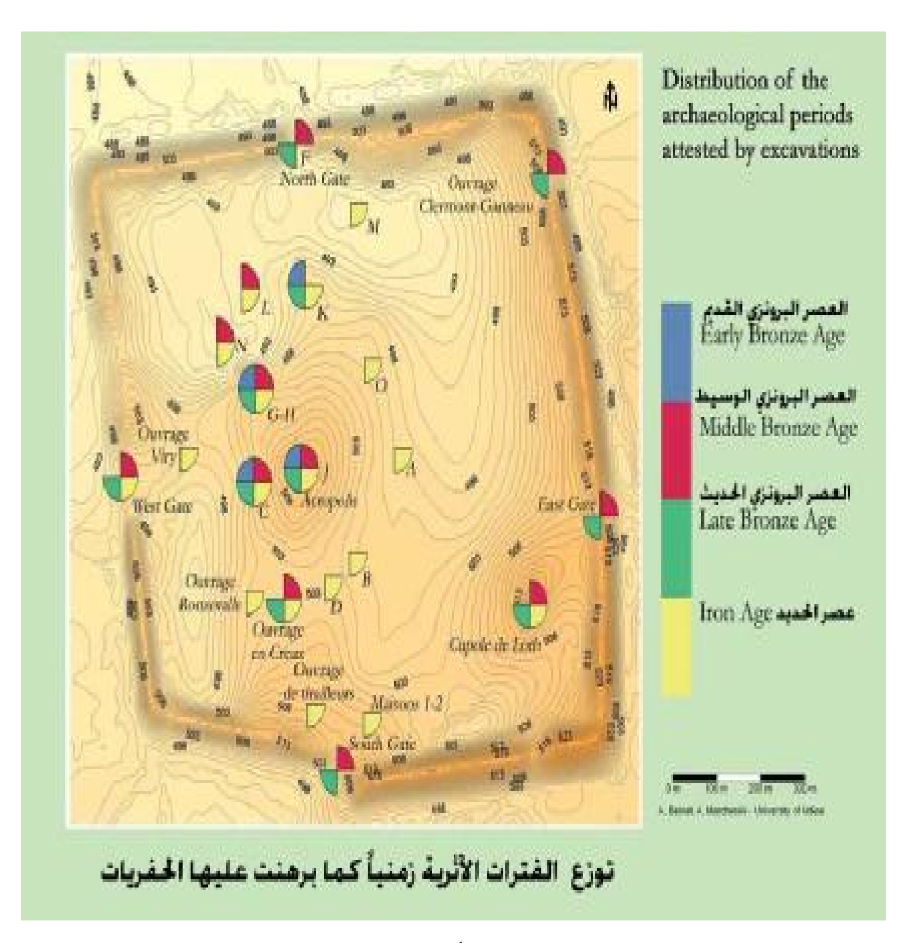
مصور تاريخي لسورية وعليه أسماء المواقع الأثرية الرئيسة



منظر عام لحفريات قطْنة



عقد من الحجارة الملونة (عقيق أحمر وكوارتز وحجر كلسي وحجر أسود وكلوريت وأصداف) من العصر البرونزي القديم (٢٤٠٠-٢٠٠٠ ق٠م) محفوظ حالياً في متحف حمص الوطني٠



توزع الفترات الأثرية زمنياً كما برهنت عليها الحفريات

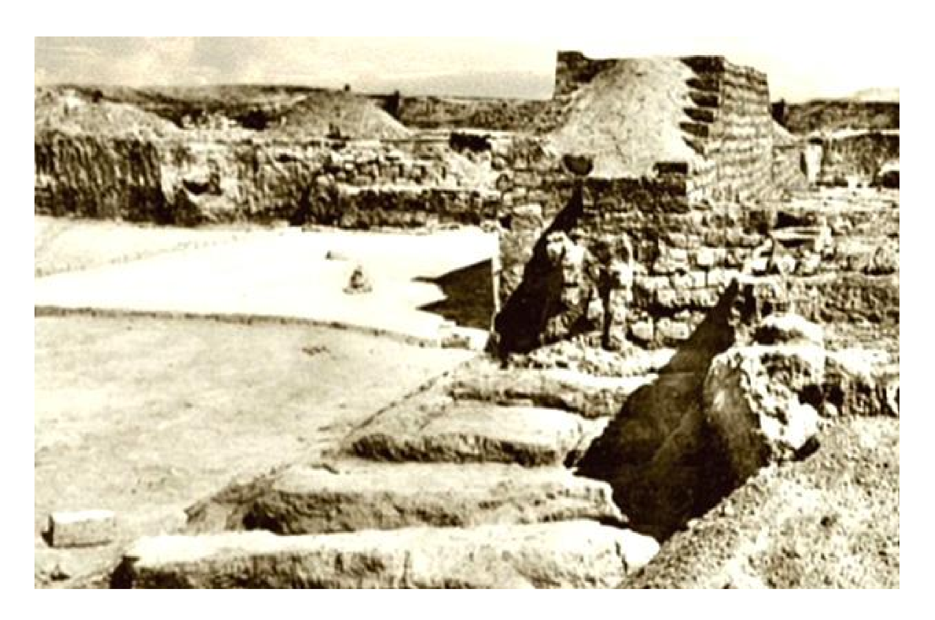
توزع الفترات الأثرية زمنياً كما برهنت عليها الحفريات



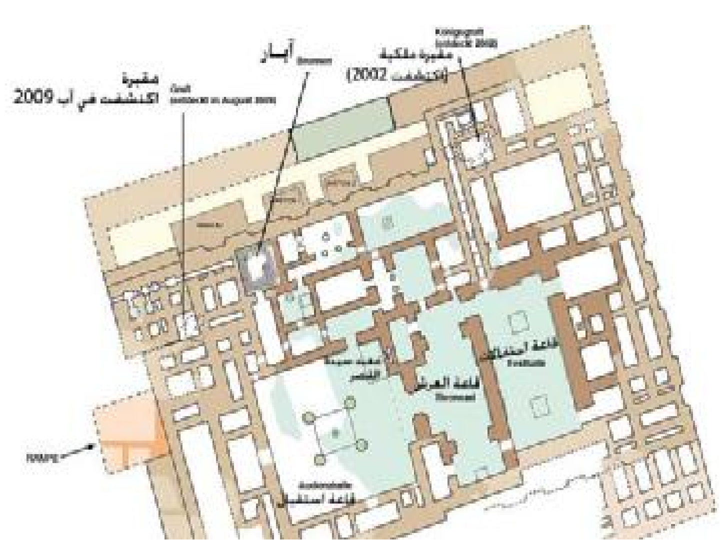
ألواح مسمارية من قطنْة



أخشاب متساقطة من سقف القصر الملكي



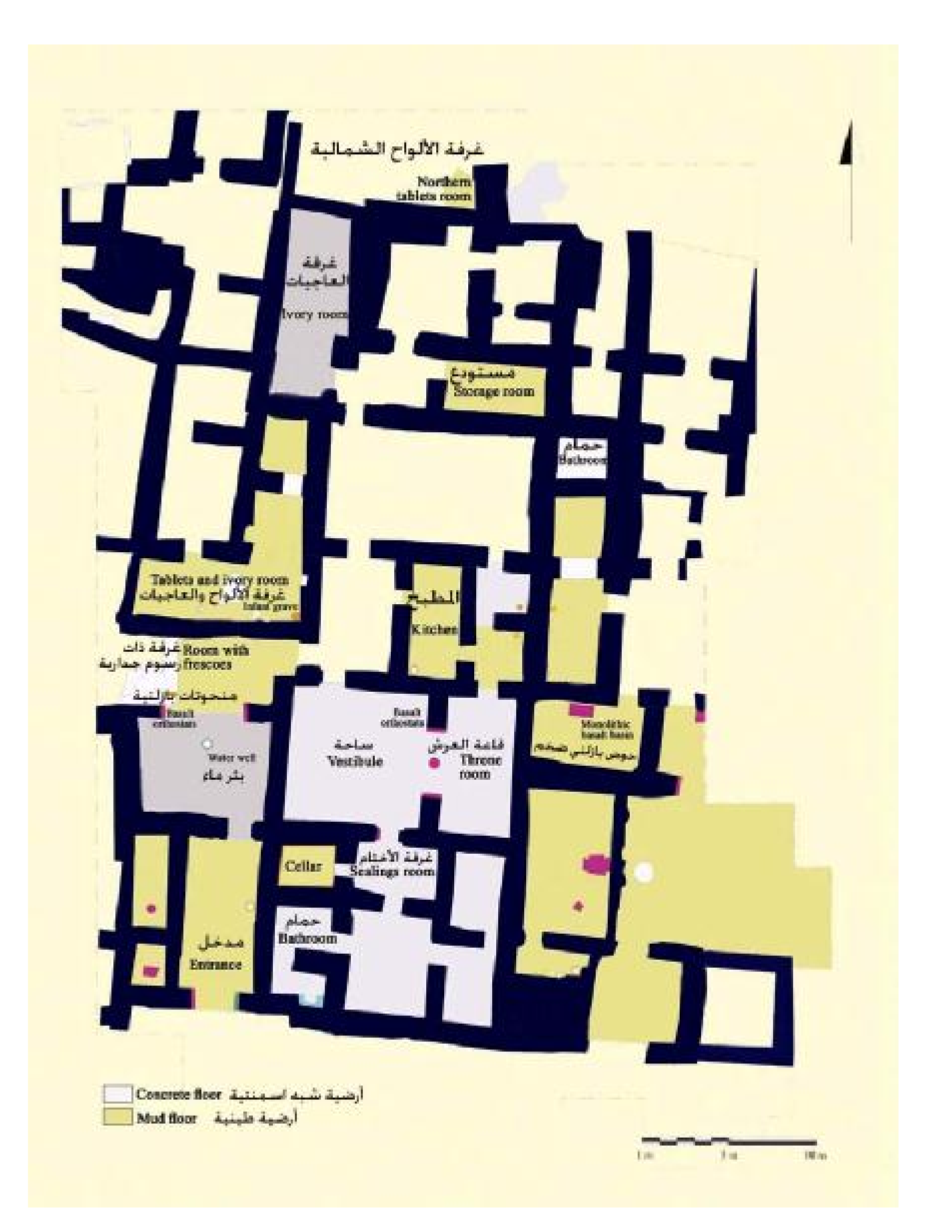
جانب من حفريات دو ميسنيل دو بويسون



مخطط القصر الملكي



تمثالان منحوتان من البازلت لحاكمين من قطنة (القرن ١٨/١٧ ق٠م) بقيا مقدسين حتى سقوط قطنة في العام ١٣٤٠ ق٠م٠ يبلغ ارتفاعهما ٨٥ سم٠



مخطط قصر المدينة السفلى (القرن ١٦ - منتصف القرن ١٤ ق٠م)



تمثال أبو الهول منحوت من العاج

الهوامش

(1) انظر عن الحفريات:

Mesnil du Buisson, R. du, Les ruines de, El-Mischrifè au nord-est de Homs(Èmesè), première compagne 1924, Paris 1927= Syria 7(1926), 289-325; 8(1927), 13-33. L,ancienne Qatna au Les ruines d,El-Mishrifèau N.-E. de Homs (Èmesè): Deuxieme campagne de foilles 1927, Paris1928=Syria 8(1927), 277-301; 9(1928), 6-24, 81-89, 360-363.
Le site archèologique de Mishrife-Qatna Paris 1935.

وانظر عن النصوص:

Virolleaud, C., Les tablettes cunèiforms de Mishrifè-Qatna, Syria 9 (1928), 90-96; 11(1930),311-324.
Bottèro, J., Les inventaires de Qatna, Revue Assyriologique(RA) 43 (1949), 1-40; 137-215; Autres texts de Qatna, RA 44(1950), 105-122 Vocabulaire de Qatna, RA 44(1950), 119-122.

(2) Eidem, J., Von Stadttoren und Bier , in: Schätze des alten Syrien , die Entdeckung des Königreiches von Qatna, Sttutgart 2009, S 115.

تمت ترجمة هذا العمل بعنوان: كنوز سورية القديمة، اكتشاف مملكة قطنا، شتوتغارت ٢٠٠٩ وهو " كتالوغ " معرض أثري كبير أقيم في مقاطعة " بادن فورتمبرغ " الألمانية بين ١٧/١٠/ ٢٠٠٩ و ١٤/٣/ ٢٠١٠ .

(3) Bonacossi, D.M., Erste Besiedlung – Das 3. Jahrtausend v. Chr., in: Schätze des alten Syrien , S. 123.

(4) Von soden, W., Akkadisches Handwörterbuch II, S. 907-908.

نقول في اللغة العربية " رجلٌ قَتِين: قليل الطعم واللحم، وسِنانٌ قتين: دقيق. والقتين: الرمح. والقتين: الحقير الضئيل ". انظر مادة " قتن " في لسان العرب.

(5) Bonacossi, Op.Cit., S. 125.

6 Archives Royales de Mari (ARM)I , Paris 1950, 26.

7 ARM I, 24, 46, 77.

انظر أيضاً:

Röllig, W., Heirat, in: Reallexikon der Assyriologie 4 (1972- 1975),S. 282 ff.

8 ARM I, 77 : 8-10.

9 ARM I , 47.

10 ARM V, 20.

11 ARM XXI, 255, XXIII, 2 75.

12 Dossin, G., Les Archives epistolaires du palais de Mari, in: Syria 19(1938), P. 117.

13 ARM XXVI, 303.

14 Dossin, G., Iamhad et Qatanum, in: Revue Assyriologique 36(1939), P. 50.

15 Ibid., P. 51.

16 Klengel, H., Geschichte Syriens im 2.Jahrtausend v.u.Z., Teil 1- Nordsyrien, Berlin 1965, S.121.

17 انظر مقالنا: تدمر محطة هامة على طريق القوافل خـــلال الألـــف الثـــاني قبـــل الميلاد، مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية، العـــدد ٤٢ (١٩٩٦)، ص ١٠٩-١١٣ .

18 ARM I 66.

19 لمزيد من التفاصيل عن القصر الملكي، انظر:

Novak, M., Pfälzner, P., Ausgrabungen im bronzezeitlichen Palast von Tall Mishrife/ Qatna 2002, Vorbericht der deutschen Komponente des Internationalen Projekts, in: Mitteilungen der Deutschen Orient-Gesellschaft 135(2003), S. 135-165.

20 Pfälzner, P., Macht und Reichtum in der Königsresidenz, in: Schätze des alten Syrien, S. 168.

21 Richter, Th., Das " Archiv des Idanda" , Bericht über Inschriftenfunde der Grabungskampagne 2002 in Miŝrife/Qatna , Mitteilungen der Deutschen Orient- Gesellschaf 135(2003), S. 167-188.

Richter, Th., Aus den Schreibstuben der Könige – Textfunde aus Qatna, in: 22
Schätze des alten Syrien, S. 112-113.
Ibid. S. 110 ff.
23
Bonacossi, D.M., Der Unterstadtpalast, in: Schätze des alten Syrien, S. 157 ff. 24

Lamoni , M.,Kanhouch ,Y.,Der 25
Ostpalast, in:Schätze des alten Syrien, S. 161 ff.
Wiseman, D. J., The Alalakh Tablets, Londen 1953, 6 26
Ibid. 259. 27
28 انظر كتابنا: موجز تاريخ مصر القديم وحضارتها، بيــشة (الــسعودية) ٢٠٠٥، ص ١٨٩ .
Moran, W. L.,The Amarna Letters, Baltimore and London 1992, P. 127-128,(1-52). 29
Ibid. . P.128-129. 30
Richter, Th., Der große Brand- Ende einer Epoche, in: Schätze des alten Syrien, S. 273 ff. 31